الفصل التاسع عشر

البعثات الأجنبية إلى بلاد الإسلام

أما البعثات الأجنبية إلى مصر ، والتى استُقْدِمت للإفادة من الخبرة الفنية والعلمية التى كان قد برزت فيها أوروبا ، ورأت مصر أنها فى حاجة إليها . هذه البعثات لم تقل خطراً عن البعثات التى تعلمت فى الغرب ، فصاغها الغرب فى أشكال جديدة . ولنقدِّم بين يدى القارىء صورة لأضرار البعثات الأجنبية ، ذلك السلاح ذو الحدين - كما يقال فى الأمثال .

● بعثة سان سيمون :

استقدم محمد على بعثة من الخبراء والأطباء والمهندسين الفرنسيين ، وكانت تُعرف باسم : « بعثة سان سيمون » ؛ لأن أعضاء البعثة كانوا من تلاميذ « سان » ، وهو معروف بآرائه الثورية وفلسفته العلمانية المناهضة للدين . كانت فلسفة « سان سيمون » وتلاميذه الذين عاشوا فى مصر لسنوات ينظمون شئون الدولة فى كافة مرافقها الاقتصادية والحربية والهندسية والطبية ، كانت فلسفة هؤلاء وفلسفة أستاذهم « سان » تعتمد على أن تنظيم المجتمع الحديث ينبغى أن يكون على أساس علمى يحل فيه العقل العالم (أو رهبانية العلم) محل الدين عقيدة وتوجيهات وسلوكاً . هذه الفلسفة كانت قد راجت فى أوروبا وبخاصة فرنسا بعد قيام ثورتها . ومن البديه أن هذه البعثة قد تركت آثاراً فى البيئة المصرية الإسلامية ، ولكنها لم تصل إلى درجة التأثير البارز المباشر لأمرين :

أما الأول .. فلأن حاكم البلاد فى ذلك الوقت لم يرد هذا التحول وإنما أراد الاستفادة الفنية والحصول على الخبرة من البعثة لتطوير النظم الإدارية ليس إلا .

وأما الأمر الآخر .. فإن الوقت كان مبكراً جداً على هذا التحول بشكل ملحوظ . وعلى كلٍ فإن بعثة « سان سيمون » كانت البذور الأولى لغرس الحضارة الغربية - وفى حيز ضيق - من مساحة مصر الفكرية والخلقية والعلمية .

* *

● بعثة على مبارك :

ليس فى تاريخ مصر العلمى الحديث ما يسمى بـ « بعثة على مبارك » ، وإنما هى تسمية من عندنا تقريباً لضبط المسائل ، والواقع لا يجافى هذه التسمية وإن كانت غير معهودة . ففى نظارة على باشا مبارك الثانية للمعارف المصرية بدءاً من عام ١٨٧١ نظمت محاضرات عامة بسراى درب الجماميز لطلاَّب المدارس العليا وبعض طلاَّب الأزهر فى مصر ، وكان يلقى تلك المحاضرات أساتذة مختارون من مصر ومن أوروبا ، وكان من بين الأساتذة الأوروبيين :

المسيو « فيدال » لعلوم السكك الحديدية ، والمسيو « جيجون » لفن الآلات ، والمسيو « هنرى بروكسن » للتاريخ العام ، والمسيو « يكتيت » لعلوم الطبيعة ، والمسيو « فرانس » للعمارة ، وكلهم كما ترى فرنسيون ، وفرنسا فى ذلك العهد كانت حريصة على تصدير حضارتها إلى مصر كما ظهر فى حملة نابليون قبل أربع وسبعون سنة على استقدام على مبارك لهؤلاء الخبراء والعلماء . ومن غير نزاع أن لهذه البعثة تأثيرات وانعكاسات فى نفوس الطلاَّب الذين تتلمذوا عليهم ، وكانت تمهيداً هادئاً لتقبل المصريين روح الحضارة الغربية ، وإرهاصات لقبول تفاعلاتها الصارخة فيما بعد فى الجامعة المصرية .

* *

● فى الجامعة المصرية :

من الحسن الجميل أن تفكر مصر أنها فى حاجة إلى إنشاء جامعة لشبابها بالإضافة إلى جامعة الأزهر التى حفظت أمانة العلوم الإسلامية الشرعية

والعربية ؛ لأن البلاد كانت فى حاجة ماسة إلى فروع العلم الأخرى . فالعلوم الشرعية والعربية لها مجالات فى الحياة مقصورة عليها ، وهى لا تغنى عن فروع العلوم الأخرى كالهندسة والطب والزراعة وغيرها . لهذا كان التفكير الذى أفضى إلى قيام الجامعة المصرية (الأهلية) عام ١٩٠٨ تفكيراً سديداً وخطوة محمودة من الأخذ بأسباب القوة والكمال . ولما فتحت الجامعة أبوابها للطلاَّب رأى القائمون عليها - وكان مديرها أحمد لطفى السيد - أن الحاجة ملحة فى استقدام بعض الأساتذة الأجانب لإلقاء محاضرات على الطلاَّب . وتم ذلك بالفعل ، وكان ممن استقدمتهم الجامعة :

● كازانوفا وتصدير الإلحاد :

أجل .. استقدمت الجامعة المستشرق « كازانوفا » ، وكان الدكتور طه حسين مدرس الآداب العربية فى الجامعة حينذاك تلميذاً وفياً معجباً بكازانوفا هذا . فيا ترى ما العلم الذى نقله كازانوفا هذا إلى طلاَّب الجامعة ؟ للإجابة على هذا السؤال ننقل للقارىء فقرة من كتاب « تحت راية القرآن » للمرحوم مصطفى صادق الرافعى أمطر اللّه قبره بشآبيب الرحمة .

يقول الرافعى مخاطباً أحمد لطفى السيد مدير الجامعة وقتذاك :

« وحدثنى عنك يا سيدى المدير : ألم تكن تعرف المسيو « كازانوفا » الذى جئتم به للجامعة ، وما علمتم أن اللّه سيبطله ، لأن اللّه أرحم من أن يجمع على أبناء هذه الأمة المسكينة كازانوفا وتلميذه طه حسين فى مدرسة واحدة . ألم تكن تعلم أنه - يعنى كازانوفا - صاحب كتاب « محمد وانتهاء العالَم » الذى يقرر فيه أن النبى ﷺ لم يستخلف أحداً بعده ، إذ كان لا يعتقد أنه سيموت ؟! .. بل يرى أن الساعة قائمة فى عهده ؟! فلما مات كان موته تكذيباً صريحاً لأصل عقيدته ؟! فاضطر أبو بكر الصدِّيق أن يكذب ويزيد فى القرآن آيتين (؟!) إحداهما : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، أَفَإِيْن مَاتَ

أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أعْقَابِكُمْ ... ﴾ [1] ، والأخرى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [2] (؟؟!) ويقول - يعنى كازانوفا - بعد ذلك : هذه كذبة حلال نحن مدينون بها لقرآن أبى بكر » [3] .

هذه الفقرة تريك نوع الفكر والعلم الذى كان الأجانب ينفثونه فى عقول الشباب . وخلاصة ما فى هذه الفقرة أن كازانوفا كان يفترى على الله ورسوله ، ويدّعى :

١ - أن صاحب الدعوة - صلى الله عليه وسلم - لم يكن رسول صدق من عند الله ، ولا أوحى الله إليه القرآن بل هو من تأليفه (؟!) .

٢ - أنه - صلى الله عليه وسلم - لم يكن يعتقد أنه سيموت قبل قيام الساعة (؟!) .

٣ - أن موته - صلى الله عليه وسلم - كان تكذيباً لعقيدته (؟!) .

٤ - أن المسلمين وقعوا فى حَرَج حين موته غير المتوقع .

٥ - أن أبا بكر - رضى الله عنه - اضطر ليزيد فى القرآن آيتين لتستقيم أمور العقيدة (؟!) .

٦ - أن ما فعله أبو بكر من الكذب الحلال . وأن المسلمين مضطرون لقبوله ومدينون به لقرآن أبى بكر (؟!) .

أليس هذا هو الإلحاد ياسادة ياكرام ؟ ثم أليست هذه البعثات شراً مستطيراً شديد الخطر على البلاد وعلى شبابها وناشئتها بوجه خاص ؟!

وأنت - عزيزى القارىء - هل فى حاجة إلى مزيد من الأدلة على أن نظام الابتعاث إلى الخارج وإلى الداخل من الخارج معبر سلس ، وطريق ممهد وقصير لتصدير الجوانب المضرة من الحضارة الغربية إلى بلاد الإسلام ؟!

* * *

---

(١) آل عمران : ١٤٤ (٢) الزمر : ٣٠

(٣) انظر ص ٢٧٥ تحت راية القرآن .